لغة التعليم في جبال النوبا في ظل العهد البريطاني

د. عطا محمد أحمد كنتول(★)

تمثل منطقة جبال النوبا إحدى مناطق التداخل اللُّغوي والثقافي في السُّودان، حيث شكلت منطقة ضغط منخفض أمتها رياح التأثير والتغيُّر، مما جعلها موضع اهتمام الكثير من الدوائر السياسية والأكاديمية للتعرُّف على أبنيتها ودراسة أوجه نموها وتطورها.

استهدفت هذه الورقة إبراز لغة التعليم في جبال النوبا إبان العهد البريطاني، حيث ناقشت مسارها وأوجه تحولها، وشرحت ما اعتراها من عوائق وتحديات.

وللتعرُّف على مسار لغة التعليم البريطاني في جبال النوبا تبرز أهمية معرفة الآتي:

[١] الواقع اللُّغوي في جبال النوبا:

تسود منطقة جبال النوبا عدة مجموعات لغوية يصعب حصر مفرداتها، حيث يرى البعض أنَّ اللُّغات السائدة في منطقة جبال النوبا تقدر بعدد جبالها،

(★) أستاذ مساعد بكلية التربية ـ جامعة أم درمان الإسلامية.

ذلك أنَّ ربط عدد اللُّغات بعدد الجبال هو كناية عن كثافة التنوُّع اللُّغوي في منطقة جبال النوبا.

وقد قسَّم الخبير اللُّغوي مستر مكدرميد (Mac Diarimid) المجموعات اللُّغوية في منطقة جبال النوبا إلى عشرة مجموعات: (الكواليب، تقلي، تالودي، ومسكين، لفوفة، تالودي وكادوقلي، داجو، تيمن، كاتلا، نيمانج، ونوبة الجبل)[1].

ومن تلك المجموعات تتفرع مجموعات أخرى، هذا بجانب اللُّغة العربية، السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما هي العوامل التي شكلت الواقع اللُّغوي في منطقة جبال النوبا؟

ففي تقديري أنَّ هناك عدة عوامل أسهمت في تشكيل الواقع اللُّغوي في منطقة جبال النوبا، يتصل بعضها بطبيعة المنطقة، والبعض الآخر بطبيعة المجموعات البشرية التي تقطن جبال النوبا.

أمَّا عن طبيعة منطقة جبال النوبا فتنظمها قلاع صخرية تشكل الجسم العام حتى غلبت على اسم المنطقة، فأصبح مصطلح (جبال) يرد لتميُّز المنطقة. وكان لهذه الطبيعة أثرها في تقليل فرص التفاعل بين المجموعات النوباوية.

---

(١) Mac Diarimid, P. A and Mac Diarimid, D. N. (The Language of the Nuba mountains, S. N. R. vol. Xiv (١٩٣١) PP. ١٥١-١٦١.

الأمر الثاني أنَّ الجبال نفسها وفرت قدراً من ضروريات الحياة للمجموعات النوباوية، حيث نجد المياه في معظم الجبال، بجانب نمو عدد من الأشجار المثمرة، مما أسهم في توفير مقومات الاستقرار في بيئة الجبل. هذا بجانب وجود عدد من الوحوش والحيوانات المفترسة في مناطق الجبال.

الأمر الثالث يتصل بطبيعة المجموعات النوباوية التي آثرت الاستقرار والاعتصام بالقلاع الصخرية، فقد لازمها الارتياب والخوف، فلم تخاطر بالانتقال إلى مناطق أخرى، كما لازمتها الانطوائية فلم يكن لها مع المجموعات المجاورة علاقة مؤسسة، وربما ترجع تلك المخاوف إلى الماضي البعيد مما ترتب عليها بروز كثير من مظاهر التباين على الصعيد اللُّغوي الثقافي، لذا ليس غريباً أنْ تنشأ كل مجموعة مختلفة في لغاتها ومظاهرها عن المجموعات الأخرى.

أمَّا عن دور العرب في دفع المجموعات النوباوية إلى الاعتصام بالقلاع الصخرية ومشاركتهم بالتالي في تشكيل التباين والتنوع اللُّغوي في منطقة جبال النوبا؛ فنجد من الروايات المحلية ما يستبعد أنْ يكون للعرب دور في ذلك، أي تشكيل عزلة النوبا ودفعهم إلى الاعتصام ببيئة الجبل، بل وتذهب إلى عكس ذلك تماماً، إذ ترى أنَّ العرب قد أسهموا في تذويب عزلة النوبا وجلبوا الطمأنينة للمجموعات النوباوية من مخاطر الحيوانات المفترسة التي استقرت

في السهول وعند أقدام الجبال، وأنَّ التجار العرب اخترقوا عزلة النوبا لأغراضهم التجارية[1].

يمكن القول أنَّ عزلة النوبا واعتصامهم ببيئة الجبل، أسهم إلى حد كبير في تشكيل التنوع اللُّغوي الذي انتظم منطقة جبال النوبا.

[٢] مسار لغة التعليم:

جاءت سياسة الإدارة البريطانية اللُّغوية في السُّودان متسقة مع سياستها الرامية إلى فصل مناطق السُّودان الوثنية عن سائر أجزائه الإسلامية. فبينما اهتمت الإدارة البريطانية بتطوير شمال السُّودان ذي التنقل الإسلامي في الاتجاه العربي الإسلامي؛ شجَّعت تطوير جنوب السُّودان وسائر أجزائه الوثنية في الاتجاه الوثني المسيحي. ولم يقف الأمر عند إسناد التعليم في الجنوب للإرساليات التبشيرية، بل اتبعت سياسة لغوية ترتكز على تبني اللهجات المحلية، الأمر الذي عمَّق الجفوة بين مجموعات شمال السُّودان وجنوبه[2].

أمَّا في منطقة جبال النوبا؛ فاهتمت الإدارة البريطانية بإيجاد لغة عامة تكون أساساً لتوجهاتها ومرتكزاً لسياستها، فأوكلت ذلك للأكاديميين الحكوميين

(١) مقابلة مع علي بولاد شيخ عرب الرواوقة الحوازمة، عمره ٨٠ سنة تقريباً، كادوقلي ٩-١٠ فبراير ١٩٨٩م.

(٢) Beshir, Mohammed Omer: Education Development in the Sudan, ١٨٩٨-١٩٥٦ (Oxford University Press ١٩٦٩) p. ٦٩.

وخبراء إرسالية السُّودان المتحدة (Sudan United Mission)، وقد تمحور هدف الإدارة البريطانية في إقصاء اللُّغة العربية عن ساحة التعليم وفرض اللُّغة الإنجليزية وتم عقد مؤتمر جوبا لمناقشة المسائل التعليمية المتعلقة بالمناطق الوثنية لا سيما جنوب السُّودان وجبال النوبا وجنوب الفونج[1].

وقد مثل إرسالية السُّودان المتحدة في ذلك المؤتمر مستر مكدرمد مشرفها الميداني الذي كان خبيراً لغوياً كما كان له قصب السبق في دراسة لغات النوبا، وقد بحث المؤتمر إمكانية تحويل اللهجة الدارجية وكتابتها في الشكل الروماني (Roman Script) أي التي قد ينشأ عن استعمالها دراسة الإنجليزية.

وقد رأى مستر مكدرمد أنْ تكون اللُّغة العربية لغة التدريس والتفاهم لكل إقليم النوبا، فأثارت قناعاته تلك قدراً من الامتعاض في أوساط سلطات الإقليم التي كانت تعلق آمالاً كبيرة على إرسالية السُّودان المتحدة، وتكمن أهمية تصريحات مستر مكدرمد في كونه خبيراً لغوياً بجانب أنَّه على قمة الهرم الإداري للإرسالية، وقد عبَّر مدير التعليم عن سخط السلطات على إرسالية السُّودان المتحدة إذ صرَّح أنَّه لا يستطيع النصح بتقديم الدعم لإرسالية السُّودان المتحدة للتدريس باللُّغة العربية، وفي صفة تهديد ذهب إلى أبعد من

(١) A note on Education policy in Southern- Sudan, Director of Education to government of Nuba mountains, 9th May ١٩٢٧, Kordofan ١, ١٤, ٧١.

ذلك فذكر أنَّ الإقليم سيتحدث اللُّغة العربية في المستقبل القريب، واقترح ألا يكون هناك تعاون مع المبشرين، وأكَّد أنْ الإقليم سيقذف في مجموعة السُّودان الشمالي[1].

وقد أدركت السلطات البريطانية منذ عام ١٩٣٠م أنَّ تيار الإسلام أصبح يتنامى، وأنَّ مراكز الكتاب غدت مراكز للإشعاع الإسلامي، لذلك اهتمت السلطات البريطانية بتبني الأحرف اللاتينية في كتابة لغة التعليم[2].

[٣] جيلان ولغة التعليم:

أسهم جيلان[3] إبان توليه إدارة إقليم كردفان بدور كبير في فكرة تبني اللُّغة العربية المكتوبة بالأحرف اللاتينية كلغة تعليم في منطقة جبال النوبا حتى تتسق مع سياسة الحكومة البريطانية الرامية إلى تصفية المؤثرات الإسلامية في منطقة جبال النوبا وإتاحة الفرص للمؤسسات التنصيرية لتضع أقدامها في المنطقة وتشكلها وفقاً لأهدافها ومبادئها.

---

(١) Education in Nuba Pagan Area. Mothers No. Kn. R. s, R. ١٧. A. B. ١٠ March ١٩٣٠ Kordofan ١, ١٥, ٧٤.

(٢) Ibid

(٣) تولى جيلان (Gillan, G. A) منصب مدير كردفان في الفترة بين عام ١٩٢٧ ـ ١٩٣٢م، ثم نصب سكرتيراً إدارياً خلفاً لماكمايكل في ١٩٣٣م.

وظل جيلان على موقفه المؤيد للعربية المكتوبة بالأحرف اللاتينية حتى بعد تنحيه عن منصب مدير كردفان وتوليه منصب السكرتير الإداري.

والمستجدات التي برزت على الساحة السياسية جعلت الكثير ممن كان يؤيد السياسة اللُّغوية السابقة يخرج عليها، بل وتزايد النقد لتلك السياسة حتى من رجال الحكومة والإرسالية وخبراء اللُّغة، لكن لم يزعزع كل ذلك موقف جيلان[1].

وتتمثل المبررات التي ساقها في أنَّ النوبا سيتعلمون اللُّغة العربية على كل حال، وأنَّ الأحرف اللاتينية ستحفظهم من الأدب العربي غير المرغوب فيه.

وتساءل جيلان عن: إلى أي مدى يمكن للمدارس المسيحية أنْ تدرس بالشكل العربي، ورأى جيلان أنَّ خمس السنوات الماضية شهدت خطوات متقدمة في صياغة ثقافة النوبا والاعتزاز بأصلهم، وفي ذات الوقت أبدى جيلان توجسه في أنَّ العربية ستفرز ذات المخاطر التي أفرزها النفوذ العربي في خمس السنوات الماضية.

ورأى جيلان أنَّ النوبا أخذوا يقفون على أقدامهم لأجل ذلك فضَّل الاستمرار في التدريب باللُّغة العربية بالأحرف اللاتينية لخمس سنوات أخرى.

---

(١) Post Vernacular Education in Nuba Mountains stated by Gillan Aug-١٩٣٥, Kordofan ١, ١٥, ٧٥.

وأشار جيلان إلى أنَّه سيخاطر بموقفه إنْ وجدت أسباب قوية لنبذ العربية المكتوبة بالأحرف اللاتينية، ورأى جيلان أنَّ على السلطات أنْ تضع أسباباً عملية لأجل حياة وإدارة نوباوية خالصة.

وقد رأى جيلان أنَّ العربية بالأحرف اللاتينية مرغوبة وأنَّ محاسنها تتمثل في الاتصال بالنسبة الكبيرة من الموظفين والذين ليس لهم معرفة باللُّغة العربية، ورأى أنَّ النوباوي عندما يكون مستعداً ليحتل مكانه في التجارة والإدارة العليا فيستعلم اللُّغة العربية.

ودعا جيلان السلطات التعليمية الحكومية والبشرية إلى تقدير الصعوبات التي تلازم التغير، بحيث لا تتورط في التدريس بشكلين، وإلى ملاحظة أنَّ الإشراف على الدروس العربية عبر مدرسين بريطانيين معظمهم ليس لهم معرفة بالعربية.

ورأى جيلان أنَّ أوضاع منطقة جبال النوبا لا تجعل الإنجليزية بديلاً عن العربية، وأنَّ الإنجليزية تصبح في الإقليم الذي ليس فيه العربية لغة الإدارة والتجارة ذات قيمة ضعيفة إلاَّ في أغراض التبشير الخالص[1].

رغم الانحياز الذي أبداه جيلان للعربية المكتوبة بالأحرف الرومانية إلاَّ أنَّها في نظره لا تخلو من العيوب، شأنها شأن اللُّغة العربية والإنجليزية، لكنه

(١) Ibid

رجَّح المحاسن على العيوب مقارنة بباقي الأشكال، فرأى أنَّ محاسن الشكل الروماني تتمثل في: أنَّه سهل ويمكن التفاهم به، ويجد العاطفة من إرسالية السُّودان المتحدة. أمَّا المساوئ التي يأخذها جيلان على الشكل الروماني فتتمثل في: أنَّه عديم الفائدة، وأنَّ كتبه المدرسية غير ميسرة، وأنَّه لا يساعد في الأمور التجارية.

أمَّا عن اللُّغة العربية؛ فرأى جيلان أنَّ محاسنها تتمثل في: أنَّها مفيدة للإدارة وضرورية للتجارة، وأنَّها تجعل النوبا المسيحيين يستفاد منهم في كنيسة أم درمان، وأنَّ الأساتذة يسهل الحصول عليهم، ورأى جيلان أنَّ مساوئ اللُّغة العربية: أنَّها تسهم في ترجيح النفوذ الإسلامي، وأنَّها تتطلب مستويات عالية وتجعل الإنجليزية لغة ثالثة.

أمَّا المحاسن التي يجدها جيلان في اللُّغة الإنجليزية فتتمثل في: أنَّها ذات تأثير مسيحي أنَّ أدبها غير محدود ويجعل حضارة النوبا وتطورهم يتم بعيداً عن فكر المسلمين، وأنَّها تقاوم إحساس النوبا بعقدة النقص. أمَّا المساوئ التي يأخذها يأخذها جيلان على اللُّغة الإنجليزية فتتمثل: أنَّها تجعل النوبا المسيحيين قليلي المساعدة لكنيسة أم درمان إذ تجعلهم لا يعرفون اللُّغة العربية، ورأى جيلان أنَّ الحكومة غير جادة لجعلها لغة التعليم.

عموماً فإنَّ موقف جيلان الرامي إلى دعم اللُّغة العربية بالأحرف الرومانية لم يجد التأييد، إذ أنَّ المستجدات التي برزت في منطقة جبال النوبا جعلت معظم

الإداريين البريطانيين يصرفون النظر عن اللُّغة العربية المكتوبة بالأحرف الرومانية وينحازون إلى التيار الرامي إلى تبني اللُّغة العربية بالأحرف العربية لغة للتعليم في منطقة جبال النوبا[1].

[٤] نيوبولد ولغة التعليم:

اختلف موقف نيوبولد[2] عن موقف جيلان تجاه لغة التعليم في مدارس جبال النوبا. وقد كان نيوبولد مهتماً بنهضة النوبا وتقدمهم التعليمي غير أنَّه كان عملياً أكثر من جيلان إذ حاول اتخاذ خطوات عملية لترجمة المشاعر التي كانت تختلج في نفسه عن الإصلاح لذا وجه اهتمامه إلى لغة التعليم.

---

(١) Ibid

(٢) سيرو دوقلاس نيوبولد (Sir Doglas Newbold) خريج جامعة أكسفورد، التحق بالخدمة المدنية في السُّودان منذ عام ١٩٢٠م، وعُيِّن مديراً لكردفان في عام ١٩٣٢م، واستمر في هذا المنصب حتى عام ١٩٣٨م، ثم نُصِّب سكرتيراً إدارياً ١٩٣٩م، فظل في هذا المنصب حتى وافته المنية في مارس ١٩٤٥م، ولمزيد من التفاصيل راجع: Henderson, K. D. D. The Making of Modern Sudan the gife and the litters of Sir Doglas Newbold (London ١٩٥٢). P. ٤٦٤.

ولم يكن نيوبولد ضد اللُّغة العربية المكتوبة بالأحرف الرومانية لصعوبة تدريسها لكن لأنَّها عديمة الفائدة، ورأى نيوبولد أنَّ العربية المكتوبة بالأحرف الرومانية قد عاقت تعليم النوبا وتقدُّمهم الأخلاقي[١].

لذا بدأت تراود نفس نيوبولد فكرة إجراء تغير في لغة التعليم لا سيما وأنَّ العربية بالأحرف الرومانية التي كانت لغة التعليم لم تجد استحساناً عند خبراء اللُّغة وبعض رجالات الإرسالية لذا آثر نيوبولد أنْ يبلور رأياً عاماً حول لغة التعليم كما حاول أنْ يتعرَّف على موقف الإرساليات التبشيرية إزاء لغة التعليم[٢].

فأسهم كل ذلك في تشكيل رغبة نيوبولد في الاستقرار على اللُّغة العربية لغة للتعليم في مدارس النوبا في عام ١٩٣٢م لتحل محل العربية المكتوبة بالأحرف الرومانية، وأنْ يدرس باللُّغة الإنجليزية في الفصول فوق الأولية، فجاء هذه الاتجاه تجاوزاً لقرار الحكومة في عام ١٩٣٠م لاستخدام الشكل الروماني وحده للُّغة التعليم[٣].

---

(١) Newbold, Governor of Kordofan to Mr. Lea. ١٩th May ١٩٣٥, Kordofan ١, ١٥, ٧٥.

(٢) Newbold to Bertram ٣. ٨. ٣٥. Kordofan ١, ١, ١٥, ٧٥.

(٣) Newbold to Dr. Lea, ١٩th May ١٩٣٥ Kordofan ١, ١٥, ٧٥.

رأى نيوبولد أنَّ محاسن اللُّغة العربية تفوق مساوئها وتتمثل في أنَّها سهلة التدريس لتوفُّر عدد من الكتب المدرسية المطبوعة، وأنَّ النوبا أصبحوا يرغبون في الالتحاق بالوظائف الحكومية الأمر الذي يتطلب إلماماً باللُّغة العربية، وأنَّ الاتصال الذي يتطلب الكتابة بين النوبا وزعماء قبائل العرب من جانب وبين زعماء النوبا وموظفي الحكومة من جانب آخر الآن شبه مستحيل وسيذلل باستخدام اللُّغة العربية، وأنَّ التجارة ازدهرت عبر الاتصال الداخلي بالعربية كما هو الحال في الاقتصاد الذي ارتبط بشمال السُّودان المتبني للُّغة العربية، فعدم تبني اللُّغة العربية يعني مزيداً من التعقيد في تلك المعاملات.

أمَّا عن مساوئ اللُّغة العربية فيرى نيوبولد أنَّها تتجسد في أمرين: أحدهما ديني إذ أنَّ تبني اللُّغة العربية يسهم في ازدياد درجة الوجود الإسلامي والآخر عملي، إذ أنَّ تبني اللُّغة العربية يجعل النوبا يتعلمون شكلين للُّغة التعليم: الشكل الروماني الذي يكون في مدارس الأطفال والمدارس المتوسطة والشكل العربي الذي يكون في المدارس الأولية.

وبالرغم من ذلك فقد استقر رأى نيوبولد على ضرورة السعي في توسيع دائرة تأييد تبني اللُّغة العربية[1].

(١) Ibid

اهتم نيوبولد بإطلاع الإرساليات التبشيرية على وجهة نظرة رغبة في كسب التأييد ثم تطلع بعد ذلك إلى توثيق ما التمسه من تأييد حول لغة التعليم، فدعا إلى عقد مؤتمر لمناقشة اقتراحه الداعي إلى تبني اللُّغة العربية كوسيلة لتعليم النوبا، فعقد ذلك المؤتمر في مكتب السكرتير الإداري في ٧ ديسمبر ١٩٣٥م وتوصل المؤتمر إلى أنَّ اللُّغة العربية إلى جانب اللُّغة المحلية يجب أنْ تكون وسيلة التدريس في مدارس النوبا، وفضَّل المؤتمر اللَّغة العربية عن اللُّغة الإنجليزية، نظراً لأنَّ استخدام اللُّغة الإنجليزية لغة تفاهم في منطقة جبال النوبا يُعَدُّ أمراً غاية في الصعوبة، وأنَّ التدريس باللُّغة الإنجليزية في مدارس قليلة قد لا يكون كافياً لإعطاء النوبا أي وسيلة لكتابة أصول تقدُّمهم أو تنويرهم أو وسيلة للتواصل الاجتماعي، وبالرغم من أنَّه لا يمكن إنكار الاستعمار العالمي للُّغة الإنجليزية كلغة تفاهم إلاَّ أنْ تدريس النوبا باللُّغة الإنجليزية بدلاً عن اللّغة العربية سيقطعهم ليس فقط من تقدمهم المادي المرتكز على اللُّغة العربية المكتوبة المطلوبة لتقدمهم في التجارة والتوظيف الحكومي لكن أيضاً عن الأصول الأساسية لتقدُّمهم الروحي والفكري[1].

(١) Language Teaching in Nuba Schools, Secretary for Education ١٧. A. P. ٧٩th December ١٩٣٥ Confidential Kordofan ١. ١٤. ٧٥.

عموماً استقر الأمر على تبني اللُّغة العربية لغة للتدريس في مدارس جبال النوبا، وتكمن الأسباب التي كانت وراء تبني اللُّغة العربية في: أولهما يرتبط بالشكل: لو أنَّ الشكل الروماني استعمل سيقطع النوبا عن كل وسائل التقدُّم المادي والأخلاقي مما لو درسوا باللُّغة الإنجليزية وسيدرسون لغة ليس لها كتب مكتوبة ويصعب عن أي شخص فهمها إلاَّ النوبا أنفسهم.

ورأى المؤتمر أنَّ الحكومة لو أقدمت على ذلك بإنكار وسائل التقدُّم والتنوير يكون ذلك بمثابة تهرب من التزاماتها الواضحة إذ أنَّ الكتاب المقدس نفسه عديم القيمة في الشكل العربي الروماني كما أنَّ العديد من الكتب الدينية التي نشرت كانت ذات قيمة في الشكل العربي كما أنَّ الشكل الروماني غير ملائم للُّغة العربية التي تحتوي على سكون لا يوجد في الشكل الروماني. ثانيهما ارتبط باللُّغة العربية، إذ أنَّ العربية العامية في السُّودان غالباً غير ممكنة كوسيلة للتعليم والتنوير، وذلك لأنَّها ليست لغة واحدة، بل مجموعة من اللهجات المتباينة، كما أنَّ العربية الدارجية السُّودانية لغة شفهية لشعب همجي فيمكن أنْ تحوَّل إلى لغة أدبية لشعب متعلم، وأنَّ العربية الدارجية الخالصة تقطع النوبا عن مؤثراتهم الحضارية كما هو الشأن في الشكل الروماني.

عموماً انتهى المؤتمر إلى تأييد وجهة نظر نيوبولد في تبني اللُّغة العربية لغة للتعليم في مدارس منطقة جبال النوبا(١).

[٥] الإرساليات التبشيرية ولغة التعليم:

[أ] إرسالية السُّودان المتحدة ولغة التعليم:

لم تبلور إرسالية السُّودان المتحدة رأياً محدداً حول لغة التعليم، وقد تباين موقف أعضائها، فمنهم من نادى بالعربية في الشكل العربي واعتبرها أكثر ملائمة للُّغة التعليم، ومنهم من لم يظهر موقفاً عدائياً للُّغة التعليم لكنه استحسن العربية المكتوبة بالأحرف الرومانية واعتبرها ذات قيم ودلالات قلما توجد فيما سواها(٢).

وقد وقف مستر مكدرمد ـ سكرتير الإرسالية ـ الذي كان خبيراً لغوياً إلى جانب تبني اللُّغة العربية لغة للتدريس، وربما أنَّ مبرره في ذلك هو الوضع الذي تمتعت به اللُّغة العربية في منطقة جبال النوبا(٣).

---

(١) Ibid

(٢) Governor of Kordofan (Newbold) to civil secretary Kn. P. ScR. ٤٦ B. ٤. ٢٣th November ١٩٣٥ Government. Office Elobied Kordofan ١. ١٤. ٧٥.

(٣) A Note on Education policy in Southern Sudan Director of Education to Governor of the Nuna Mountains ٢٩th May ١٩٢٧ Kordofan ١. ١٤. ٧١.

لم يبد مؤتمر عبري الذي تداول فيه أعضاء الإرسالية والحكومة موضوع لغة التعليم أي اعتراض على التدريس باللُّغة العربية، لكنهم كانوا يرون أنَّ العربية المكتوبة بالأحرف اللاتينية مناسبة ومفيدة، وأنَّه قد يكون لها في المدى البعيد استعمال عام أكثر مما عليه الآن، كما اقترحوا أنَّ تدريس المدارس الأولية بالعربية المكتوبة بالأحرف اللاتينية لسنة أو ثلاث سنوات وباللُّغة العربية المكتوبة بالأحرف العربية لسنة أو سنتين(١).

وقد اعتذرت الإرسالية عن حضور مداولات المؤتمر الذي دعت إليه السلطات البريطانية لمعالجة لغة التعليم، وعلَّلت ذلك بأنَّ الحكومة هي صاحبة القرار الفاصل في ذلك، فأشارت عليها أنْ تخطرها في النهاية عما استقرت عليه مداولات المؤتمر(٢).

[ب] جمعية التبشير الكنسي ولغة التعليم:

يُعَدُّ موقف جمعية التبشير الكنسي تجاه لغة التعليم أكثر وضوحاً من موقف إرسالية السُّودان المتحدة، إذ كانت جمعية التبشير الكنسي تتوقع وجود

(١) Precis of conference between the Government and S. U. M. Held at Abri. Kordofan Province June ٢٥th ٣٥ Kordofan ١, ١٤. ٧٢ Newbold tk Lea Merf, KN. P. ١٧. D. ٢٦th May ١٩٣٥.

(٢) يراد به مؤتمر ٧ ديسمبر ١٩٥٣م الذي عُقِدَ بمكتب السكرتير الإداري لبحث مسألة لغة التعليم في مدارس جبال النوبا.

اختلاف في وجهات النظر بين الحكومة والإرساليات حول لغة التعليم في مدارس جبال النوبا، وذلك نظراً للاعتبارات المختلفة من قبل الحكومة والإرساليات والمواطنين التي تتمثل في إيجاد أحسن وسيلة لنشر الإنجيل وأحسن وسيلة لتلبية متطلبات الحكومة بجانب اللُّغة المثلى التي تجد الترحيب عند المواطنين لكن ما يجمع بين الحكومة والإرساليات هو فكرة بناء ذاتية النوبا عبر موروثاتهم المحلية بجانب أحسن وسيلة للأفكار الغربية[1].

يبدو أنَّ السائد على المستوى الإفريقي في عرف المؤسسات التنصيرية أنَّ اللهجات المحلية خير أداء لبناء الذاتية والحفاظ على كينونة الشعب، ورأت جمعية التبشير الكنسي إنَّ هذا المفهوم إن كان معقولاً في سائر المجتمعات الإفريقية إلا أنَّه يصعب تطبيقه في بيئة كمنطقة جبال النوبا، إذ تشوبه مجموعة من الصعوبات، وذلك نظراً للتنوع اللُّغوي الكثيف والمعقد[2].

ورأت الإرسالية أنْ تُختار لغة واحدة من كل منطقة وتحمل باقي المجموعات على التعامل مع اللُّغة أو اللهجة المختارة من قبل الحكومة، ثم يدرس بها في المدارس وتجعل لغة التفاهم بين المجموعات النوباوية في المنطقة،

---

(١) The Nuba Mountains. Report of a visit and Note ١٩٣٤. Rev. C, Bertram, Kordofan ١, ١٥. ٧٥.

(٢) Ibid

لكن حتى هذا النمط الذي يقوم على الاختيار رأت الإرسالية أنَّه لا يخلو من الصعوبات التي تتمثل في التكلفة والعمال الذين يقومون بتجهيز الكتب المدرسية، كما أنَّ المبشرين يصعب تبادلهم بين المحطات المختلفة إذ أنَّ المبشِّر في أي منطقة يناط به استيعاب الواقع اللُّغوي في منطقة عمله التي تختلف عن سائر المناطق. لذلك فإنَّ تحويل أي مبشِّر إلى أي منطقة أخرى يتطلب تأهيلاً جديداً مما يشكِّل قدراً من الصعوبات[1].

وقد أدركت جمعية التبشير الكنسي أنَّ هناك عدة مستجدات ومتغيرات أسهمت في جعل اللُّغة العربية لغة التفاهم، بل وفرضت تبنيها في مدارس النوبا، لكن السؤال الذي كان يدور في خلد رجال الإرسالية آنذاك، هو: إلى أي مدى يمكن أنْ تكون اللُّغة العربية وسيلة للتعليم؟ وإلى أي مدى يمكن التدريس باللُّغات الأخرى وتدريس العربية كمادة؟ وهل في الإمكان أنْ تكون اللُّغة الإنجليزية وسيلة للتدريس؟

يبدو أنَّ جمعية التبشير الكنسي تفضِّل اللُّغة الإنجليزية وسيلة للتدريس، إذ ترى فيها مميزات قيمة قلما تجدها فيما سواها، إذ أنَّه بتبني اللُّغة العربية كلغة أساسية في أي تعليم ثانوي واللُّغة العربية كمادة فقط، فعندئذ ستصبح فكرة المتعلمين قريبة من المسيحية منها إلى الإسلام وستمهد الطريق إلى تعليم عالٍ

(١) Ibid

في المستقبل وتبني الإنجليزية في مدارس النوبا يعني في نظر الإرسالية فتح الطريق إلى الثقافة الواسعة وفي ذات الوقت للتقدُّم والثقافة المسيحية(١).

أمَّا عن اللُّغة العربية في حسبان الإرسالية فإنَّها لا تعتبر وسيلة مثلى للتفكير في الله، وأنَّ أفكارها محدودة، وأنَّها تفتح الطريق إلى الإسلام، وأنَّه للحصول على كتاب عربي خالٍ من الإشارات الإسلامية يُعَدُّ أمراً غاية في الصعوبة، لذلك اقترحت الإرسالية على السلطات الحكومية ضرورة تحاشيها(٢).

أمَّا عن العربية المكتوبة بالأحرف الرومانية فلم تجد من جمعية التبشير الكنسي ذات القبول الذي وجدته من إرسالية السُّودان المتحدة إذ أنَّ بعض أعضائها يعتبرون اللُّغة العربية المكتوبة بالأحرف الرومانية لغة همجية، وغير ثابتة، وذات تأثير إسلامي(٣).

وجمعية التبشير الكنسي لا تعارض التدريس باللُّغة العربية لخمس سنوات قادمة حسبما اقترح لكنها تعارض بشدة اعتبار اللُّغة العربية وسيلة

---

(١) Ibid

(٢) Personal Letter from Bertram to Mr. Newbold ٢٨th May ١٩٣٥, Kordofan ١, ١٤, ٧٢.

(٣) Government of Kordofan to civil secretary ٢٣ November ١٩٣٥, Kordofan ١, ١٤, ٧٢.

للسعادة النهائية للنوبا وفي حسبانها أنْ تبني هذا المسلك، ربما يؤدي إلى عواقب وخيمة[١].

ولما تشكلت رغبة مدير كردفان نيوبولد في تبني اللُّغة العربية لغة للتدريس في مدارس الجبال حاول التعرُّف على آراء الإرساليات في اقتراحه فلم تبد جمعية التبشير الكنسي رأياً مضطرباً كما كان الأمر عند إرسالية السُّودان المتحدة، وقد تجسدت وجهة نظرها عبر سكرتيرها العام مستر برترام (Bertram, C. I) الذي حاول تشكيل رأي عام ضد اللُّغة العربية فنادى بضرورة نبذ اللُّغة العربية وتبني اللُّغة الإنجليزية[٢].

وقد أبدى برترام اعتراضين على تبني اللُّغة العربية لغة للتدريس: أحدهما ديني، والآخر ثقافي فالاعتراض الديني يقوم على أنَّ التدريس باللُّغة العربية يفتح الباب للإسلام وأنَّ الأدب العربي مليء بالأفكار الإسلامية أيضاً، وأنَّ الكتب التي تمدح وتثني على مقدسات الإسلام والمسلمين (أمثال فكي) وقوعها في أيدي النوبا أمر محتوم، والطريقة الوحيدة التي رآها برترام لتحاشي مثل ذلك التأثير تتمثل في أنْ يدرس باللُّغة الإنجليزية أو بالعربية المكتوبة

(١) Personal Letter from Bertram to Mr. Newbold ٢٨th May ١٩٣٥ Kordofan ١, ١٥, ٧٥.

(٢) Newbold to Dr. Lea ٢٦th May ١٩٣٥ Kordofan ١, ١٤, ٧٢.

بالأحرف الرومانية التي تقود إلى التدريس بالإنجليزية. ورأى برترام أنَّ اللُّغة العربية وسيلة فقيرة لتدريس المسيحية وأنَّ الاصطلاحات العربية للأفكار المسيحية كالعقيدة والسماح مثلاً لها ارتباطات حتمية بالأفكار الإسلامية أكثر من الأفكار المسيحية ورأى أنَّ الطلاب الذين يتعلمون المسيحية عبر العربية غالباً ما يلتقطون أفكاراً غير مسيحية[1].

أمَّا اعتراض برترام الثقافي فيتمثل في:

[أ] أنَّ اللُّغة العربية تقود النوبا إلى العربية الإسلامية للثقافة، وإلى الفكرة الإسلامية للدين.

[ب] أنَّ النوباوي لا يتعلم اللُّغة العربية كما هو الشأن عند السُّودانيين الشماليين فدائماً يكون في موضع قصور فبذلك يكون قليل المساعدة إلى اتجاه الترقية والاستقلال وفي المقابل لو أنَّ النوبا تعلموا الإنجليزية ووجدوا فرصة للتعمُّق فيها كأي شخص في شمال السُّودان فسيستطيع النوباوي أنْ يقول للعرب: نحن نستطيع أنْ نقرأ وأنْ نكتب وما عندنا أي احتياج لعربيتكم.

[ج] أنَّ بعض النوبا تحت الأوضاع الحالية يعملون في أم درمان وفي أماكن أخرى في شمال السُّودان ولو أنَّ النوبا تعلموا كتابة وقراءة اللُّغة العربية في الشكل العربي سيكون ذلك أكثر إغراءً لهم وتحفيزاً في طلب التوظيف في تلك

(١) Language Teaching in Nuba Korfofan ١, ١٧, ٧٥.

الأماكن ذات التأثير المفسد، وأنَّه من الصعوبة جداً للنوبا أنْ يقرأوا ويكتبوا اللُّغة العربية بجانب لهجاتهم المتعددة الأشكال[1].

لم يعبأ المؤتمر بما أثاره برترام من تحفظات حول تبني اللُّغة العربية إذ استقر قراره على التمييز بين اثنين: إمَّا اللُّغة العربية أو اللُّغة الإنجليزية، وإذا كانت في أي شكل وفي أي حرف.

رأى المبشرون أنَّ اللُّغة الإنجليزية لو كانت عملية ستكون مفضلة لهم، غير أنَّ الحكومة لم تكن مقتنعة في أنَّ اللُّغة الإنجليزية ممكنة وعملية في واقع جبال النوبا ذات الوجود العربي المتنامي، وانتهى الأمر إلى تبني اللُّغة العربية في الشكل العربي مفضلاً على تبني العربية في الشكل الروماني إذ كان تبني الإنجليزية ليس ممكناً[2].

عندما أدرك برترام أنَّ اعتراضه على تبني العربية لم يجد آذاناً صاغية حاول تقديم الاقتراح الذي سبق أنْ تقدمت به إرسالية السُّودان المتحدة في مايو ١٩٣٥م، الذي يقترح أنْ تدرس المدارس الأولية باللُّغة العربية المكتوبة بالأحرف الرومانية لأبعد مراحل الكورس، وباللُّغة العربية في الحرف العربي لآخر اثنين أو ثلاث مراحل من الكورس، لكن الحكومة رفضت اقتراح برترام بحُجَّة أنَّ

(١) Ibid

(٢) Ibid

سلطات التعليم رأت أنْ ذلك غير ممكن، وأنَّ النتيجة الوحيدة هي حشو ثلاث لغات (المحلية ـ العربية الدارجة في الحرف الروماني واللُّغة العربية) أو أربع لغات إذا ضمت اللُّغة الإنجليزية إلى المواد الأولية، فيكون ذلك بمثابة تمزيق لأذهان الطلاب، فلا يستطيعون كلياً التعبير أو فهم الأفكار عبر أي وسيلة مكتوبة. أمَّا النقاط التي أثارها برترام في أنَّ اللُّغة العربية المكتوبة بالأحرف الرومانية ـ التي سبق أنْ تبنتها الحكومة ـ كانت بمثابة تدرج في تدريس حروف الإنجليزية، فقد انبرى للرد عليها مستر جيلان الذي كان يؤيد تبني اللُّغة العربية المكتوبة بالأحرف الرومانية، فدحض مزاعم برترام، وأكَّد أنَّ ما ذهب إليه برترام لم يكن في نية الحكومة، وأوضح أنَّ استخدام العربية المكتوبة بالأحرف الرومانية كان استخداماً مؤقتاً للمساعدة في عملية التحوُّل حتى يتمكن من تعليم النوبا بثقافتهم الذاتية[1].

ولما كانت جمعية التبشير الكنسي لا تملك صلاحيات تمكنها من تجسيد وجهة نظرها إزاء لغة التعليم فما كان منها إلاَّ أنْ رضخت للأمر الواقع والتزمت بموجهات الحكومة التي سارت في خطوط الشمال فتم تبني اللُّغة العربية لغة للتدريس في مدارس جبال النوبا.

[٦] الخاتمة:

(١) Ibid

يمكن القول أنَّه رغم التنوُّع اللُّغوي الكثيف في منطقة جبال النوبا إلاَّ أنَّ اللُّغة العربية كانت القاسم المشترك بين المجموعات النوباوية، ويرجع ذلك إلى الوجود العربي المتجذر في منطقة جبال النوبا مما شكَّل عائقاً صلباً تكسرت أمامه مخططات الإدارة البريطانية في دفع النوبا للتطوُّر وفق الموروث المحلي والمعتقد المسيحي، فقد دفع ذلك السلطات البريطانية لتعديل سياستها اللُّغوية حيث تخلت عن التدريس بالأحرف اللاتينية، واستبعدت الإنجليزية، وتبنت اللُّغة العربية لغة للتعليم في مدارس جبال النوبا رغم ما يشوبها من مخاطر إذ أنَّ اللُّغة العربية في حسبان السلطات البريطانية تعضد الفكرة الإسلامية للدين، والفكرة الإسلامية للثقافة.